

الفصل الثامن

الرومان والشرق الاوسط

تروى أنباء عن التاريخ القديم أن روما تأسست عام ٧٥٣ ق.م. وبمرور السنين أصبحت روما جمهورية أرستوقراطية في غضون القرن السادس ق.م. وكان بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) هيمنت وتسلطت على عامة الشعب (البليبيان) ... ثم مرت أجيال من الصراع بين البطارقة والشعب ، حتى انتهى الأمر بأن حطم العامة معظم ما كان للعائلات القديمة من امتيازات .

ومع الصراع الداخلي كانت هناك محاولات كثيرة لتوسيع رقعة الفتوح الخارجية . ويذكر التاريخ صراع روما مع الأترسك وهم أبناء عم للشعوب الإنجليزية وقد وضعوا أقدامهم في الجزء الأوسط من شبه الجزيرة الإيطالية . وكانت لهم قلعة فيأى الحصينة – وهى على بعد أميال قليلة من روما – ولم تستطع الجيوش الرومانية في محاولاتها العديدة اقتحام أسوار فيأى التى لم تنكسر إلا في عام ٤٧٤ ق.م.

وقد هبطت من الشمال جماعات الغالة الغازية عام ٣٩٠ ق.م. ، واكتسحوا روما تحت أقدامهم ونهبوا الكايبيتول الحصين . ويروى أن النية كانت قد بيتت لهجوم ليلى على الكايبيتول في غفلة من الحراس ، غير أن صباح الأوزة المتيقظة نهت الحراس .. وانسحب الغالة عائدين شمالا تاركين لروما حرية الحركة ، وبسطت سلطانها في نفس الوقت الذى كانت جيوش الإسكندر الأكبر ترفع أعلامها متقدمة شرقاً إلى بلاد الهند .

ومات الاسكندر ، وانقسمت امبراطوريته في وقت كانت روما قد أكدت مكانتها بين أطراف العالم المعروف وقتئذ . غير أن روما وجدت منافسة

شديدة ومتحدبة من مدينة فينيقية على الساحل الأفريقي هي قرطاجنة ، وكانت أعظم مدن العالم بلا منازع في القرن الثالث ق.م. وفي عام ٢٦٤ ق.م. بدأ الصراع الجبار بين روما وقرطاجنة فيما عرف باسم الحروب البونية . وكانت فيها معارك برية وبحرية ؛ نصر للرومان أحياناً وللقرطاجنيين أحياناً أخرى .. وأسرت روما مرة مائة وأربعة من الفيلة سببتهم في شوارعها فخرأ ، ثم فترات صلح طالت سنوات وقصرت أخرى .

وظهر هانيبال الهائل ، ومن أسبانيا عبر جبال الألب وهاجم الجيوش الرومانية آملاً أن تمحو قرطاجنة روما ، غير أن الرومان قطعوا عليه خطوط تموينه عندما نزلوا بقواتهم بالقرب من مرسليليا . وقام النوميديون بثورة هددت قلب قرطاجنة . وعبر جيش روماني البحر إلى إفريقية . وفي معركة زاما (٢٠٢ ق.م.) هزم سيبليون الإفريقي هانيبال واستسلمت قرطاجنة .

ويقسم المؤرخون التربة الرومانية إلى مراحل أربعة :

(١) المرحلة الأولى ويطلق عليها مرحلة الوطنيين : وفيها استخدمت روما الحروف الهجائية اليونانية . ويتميز النصف الأخير من هذه الفترة بترجمة الأودسا إلى اللاتينية في حوالى ٢٥٠ ق.م. على يد ليفياس أندرونيكاس Livius Andronicus وهو يوناني قطن روما .

(٢) مرحلة الانتقال : وفيها قدمت الثقافة والمثل الإغريقية إلى روما على الرغم من معارضة الرومانيين المنحفظين ، وانتهت هذه الفترة في حوالى ٥٥ ق.م. ، بسيادة المثل العليا اليونانية بموافقة شيشرون .

(٣) مرحلة المعاهد الرومانية : وفيها نهضة وتوسع في معاهد التعليم الرومانية ذات الشكل اليوناني . أما مضمونها فقد تأثر بالحياة الشكلية الرومانية التي لم تتفق مع مثالية اليونان الأدبية ، وتنتهى هذه الفترة حوالى لعام ٢٠٠ بعد الميلاد .

(٤) وأخيراً فترة الانحلال والسقوط مستتبعة تدهور الامبراطورية الرومانية ، وانتهت هذه الفترة حوالى ٥٢٩ م' ، عندما أقفل الامبراطور

جستنيان جامعة آئينا الوثنية ، ومعرفاً رسمياً بسيادة التربية المسيحية التي كانت قد بدأت تنتشر منذ قرنين من الزمان ، وفي هذه الفترة الأخيرة بدأت التربية بهدف إعداد الأفراد لحياة عملية نفعية في المجتمع الروماني تنلوي وتنطقاً شموعها تدريجياً ، وعبئاً كانت محاولات الأقلية الأرستوقراطية التي عاشت حياة ناعمة سهلة .

التربية الرومانية :

المرحلة الأولى : عصر المواطنين

كان للأب أن يقرر ما إذا كان يبني طفله أم يعرضه لعاديات الطبيعة ويتخلص منه ، فإذا ارتضى له البقاء وانتسابه إليه احتفل به في اليوم التاسع إذا كان الطفل ذكراً وفي اليوم الثامن إذا كان أنثى (١) ، بينما كان مثل هذا الاحتفال يتم في بلاد الإغريق في اليوم الخامس أو السابع . ولم تختلف تربية الأطفال الرومان - قبل ٦٠٠ ق.م. - عندما عرفوا الحروف الهجائية - عن تربية أطفال الأقوام التي لم تعرف القراءة والكتابة . وكان الأطفال يتعلمون عن طريق الاحتكاك المباشر بـمناشط الحياة الاجتماعية . فلم تكن هناك مدارس ، وإنما كانت روما كلها مدرسة كبيرة تعلم الأحداث فيها الحياة بالحياة ذاتها ، فكانت الحياة هي التربية ، والتربية هي الحياة .

وإلى سن السابعة كان الطفل يتلقى التعاليم الخلقية وقواعد السلوك من أمه ثم يخرج الولد مع والده يلاحظه ويتابعه فيما يقوم به من أعمال أي (يتعلمذ) عليه . أما البنات فكن يتعلمذن على أمهاتهن في الشؤون المنزلية والاجتماعية والدينية ويعرفن واجباتهن وما يتعين عاين عمله .

وعامة ، فإن هذه الفترة المبكرة في حياة الرومان تميزت بغلبة الطابع الديني الذي صيغ كل مظاهر الحياة ، والذي أثر على تربية الأفراد فنشأوا وعاشوا في فضائل وعادات خلقية سليمة .

وتساير هذه التربية الخلقية تربية رياضية بدنية قام بها الآباء لمربين أبناءهم

على فنون الحرب والقتال عاملين على تنمية وتقوية أجسامهم . ومن الرياضة المعروفة وقتئذ السباحة والفروسية والجري والقفز ورمى القرص والرمح والتنس (٢) .

ولم تعرف التربية بصورتها النظامية قبل ظهور « الألواح الإثنى عشر للقانون » عام ٤٤٩ ق.م. ، وكان على المواطنين حفظ هذه القوانين على ظهر قلب ، وإن اقتصر هذا في أول الأمر على أبناء الأرسوقراطيين Patricians حوالى ٢٨٠ ق.م. فتح كبير الكهنة مدرسة لدراسة هذه القوانين لأبناء الشعب Plebeians وكان لابد من تعلم القراءة والكتابة أولاً ، وكانت هذه مسئولية الآباء (والأمهات أحياناً) . ولا تذكر المعلومات التاريخية أنه وجد في هذا الوقت المبكر مدرسون مختصون بتعليم القراءة والكتابة للأطفال — والأحداث .

مرحلة الانتقال :

استمرت التلمذة — القائمة على ملاحظة الكبير ثم مشاركته على نطاق ضيق — في ميادين الفنون المنزلية والصناعية والتجارة والملاحة والسياسة والخدمات العامة والحرب ، والقانون أيضاً . ويعزى إلى الرومان أنهم مؤسسو ونظام مسك الدفاتر الحديث ، فكان الحدث يتعلم الحسابات في المكان الذى يعمل به ، كما كان الغلمان والصبية يتفهمون أسرار الحرف المختلفة من ممارستهم العملية ، وقد استمر هذا النظام (التلمذة الحرفية) إلى العصور الحديثة في بعض البلاد .

ويتميز عصر الانتقال باتساع رقعة الدولة مما يتطلب تطلعات أوسع في أفتقها من تطلعات روما المدينة المحدودة المساحة ، وكان لابد من ظهور مدارس ذات صبغة شكلية . وتبعت هذه المدارس النظم الإغريقية ، وكانت بداية ظهورها ٣٠٠ ق.م.

هدفت هذه المدارس إلى القيام بالدور الذى قام به الآباء في العصور

السابقة ، فهو لاء شغلوا بأعمالهم التي تزايدت مع التوسع الخارجى ، كما أن تعقد الحياة حتم وجود مختصين لتربية الأطفال ، وكان على التلاميذ أن يتعلموا مهارات عملية للكسب والحياة ، ولكى يقودوا مع روما العالم ، ولكن هذه التربية اختلفت عن التربية فى العصر السابق الذى كان يعد التلاميذ لواجبات قانونية وعسكرية وسياسية واقتصادية ... الخ . أما فى عصر الانتقال فكان الإعداد أساساً لتكوين المواطن البليغ فى خطابه ، الفصيح فى بيانه وإقناعه . ولكن الرومان فهموا معنى الخطابة بمدلول أوسع مما نفهمه الآن ، فالخطيب عندهم هو شخص على قدر كبير من الثقافة ، ملم بشئى صنوف المعرفة والمهارة فى الفلسفة والمانون والسياسة وفنون الحرب وفى الحياة العامة .. إلخ . ولذلك فكان من حق الخطيب المقوه أن يتولى أى منصب فى الدولة سواء فى الحرب أو فى السلم . وفى سبيل تكوين هذا المواطن اتجهت فلسفات التربية فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية .

أما عن النظام وطرق التدريس فقد عرفنا (فى العصر الأول) اهتماماً شديداً بالحفظ والاستظهار وتقليد الكبار ، ونفس الاتجاه استمر عندما ظهرت المدارس فاعتمد تعليم الحروف الهجائية والنحو والبلاغة على نفس الأسلوب فى التعليم . بل أضيف العقاب البدنى حتى وصل ذروته فى العصر الثالث مما حدا بالمربين فى ذلك العصر والكتاب الهكيين إلى نقد النظام التربوى نقداً لاذعاً ساخراً . وقد استمر الاهتمام فى هذا العصر بالتربية الخلقية ومصدرها البيت ، كما استمر تعلم مهنة المحاماة بالتلمذة المهنية فى ساحات المحاكم ، وإن كان الموقف قد تغير فى نهاية هذا العصر ، فكان الطلبة يثمنون على المرافعة والدفاع فى قضايا وهمية تحت إشراف أستاذهم حيث يدرسون القانون .

أما عن تنظيم المدارس فكانت هناك :

١ - المدرسة الابتدائية أو الأولية Ludus ويذهب إليها الأطفال (من سن السابعة إلى الثانية عشرة) لتعلم القراءة والكتابة والحساب وألواح القانون الإثنى عشر .

٢ - المدرسة الثانوية Grammar School ، فبعد عام ٣٠٠ ق.م .
أنشئت مدارس لتعليم اللغة والأدب الإغريقيين ، وقد أنشأها مدرسون إغريق
وعندما ترعرعت الآداب اللاتينية ، أنشأ مدرسون إغريق أيضاً مدارس
لتعليم هذه الآداب .. ثم بدأ مدرسون رومان يحلون محل الإغريق ، ومع
إحساس الرومان بتفوقهم السياسى والخلقى على الإغريق إلا أنهم اعترفوا
بتفوق الفلسفة والفن والآداب الإغريقية ، وكان المثقفون من الرومان يباهون
بمعرفتهم للثقافة الإغريقية . بل إن كوينتليان الرومانى أعلن فى نهاية القرن الأول
الميلادى أن على الطفل تعلم الإغريقية فى بداية حياته المدرسية ، ولم يكن
مستغرباً أن تصبح اللغة اليونانية هى لغة التفاهم بين أجزاء الإمبراطورية
المتراصة الأطراف .

وكان التلاميذ يدخلون المدرسة الثانوية من حوالى سن الثانية عشرة
ويستمرّون بها مدة أربع سنوات ، وفيها درسوا دراسات أدبية توهلهم
للداسة العليا . وتضمن المنهج مختارات كثيرة من الأدبين الإغريقى واللاتينى
شعراً ونثراً ، إلى جانب دراسة التاريخ والجغرافية والأساطير .

٣ - مدارس البلاغة Rhetorical School ، وكان الطلبة يدخلونها
فى سن السادسة عشرة ليدرّسوا فنون الخطابة ، وقد تأثرت هذه المدارس فى
نظمها ومناهجها وخططها بالطابع الآتينى ، وخاصة آراء سقراط وأرسطو ،
ثم تأثرت فيما بعد بشيشيرون وكوينتليان . وكان على الطلبة أن يخضعوا
لتدريبات مستمرة فى كتابة موضوعات إنشائية وخطابية ، ومعالجة مشاكل
بالمنطق والحجج والبراهين ، وكيف يستخدمون التعبيرات المناسبة بالقول
والإشارة وخلجات الوجه . وكان على المتكلم على حد تعبير شيشيرون (١)
أن يكون دائرة معارف ، فيلم بالفلسفة والمسائل السياسية والجغرافيا والفنون
العسكرية والطبيعية والرياضيات والقانون والمنطق . كما أن كوينتليان أضاف
إلى هذه القائمة دراسات أخرى منها الموسيقى والتاريخ والفلك والهندسة ورياضة

بدنية لضمان رشاقة الحركات الجسمية والإشارات اليدوية التي يستخدمها الخطيب أثناء خطابه . على أن تدريس هذه المواد لم يוכל إلى مدرسي الخطابة الذين ترفعوا عن تدريسها . وألقيت على كاهل مختصين خارج هذه المدارالس العالية . وفي دراسة الفلسفة مثلاً كان على الطلبة أن يحضروا اجتماعات ومناقشات الفلاسفة في متندياتهم . وقد اعتبرت الخطابة سيدة وملكة كل الدراسات ، وهى خاتمة الدراسة . ولو أن بعض الشباب الأرستقراطي لم يكف بهذا القدر من التعلم فكانوا يجوبون بلاد الإغريق وآسيا الصغرى والإسكندرية منتقلين بين مراكز الإشعاع الثقافي فيها .

أما عن موارد التعام في هذا العصر ، فكانت المدارس الخاصة ، ويدفع التلاميذ مصروفات لقاء التحاقهم بها .

وأما عن المدرسين : ففي أول الأمر كان الآباء مسئولين عن تربية أبنائهم في طفولتهم ، ثم تطور الأمر وخاصة عند الأثرياء الذين عهد كل منهم بطفله إلى مرب Paedagogus ، وكانت وظيفته الاشراف على سلوك الصبي وتعليمه القراءة والكتابة باللغة اليونانية (١) . وكان هذا البيداجوج عبداً ، أو أعتق من العبودية . وهناك رأى أن عمل البيداجوج كان مساعدة الطفل أثناء تعلمه في المدرسة الابتدائية Ludus ، وكان يكفى بمرافقة الطفل في غدوه ورواحه ، ولم يقصد أن يعلمه بطريقة مباشرة ، بل يساعده في واجباته المنزلية ويشرف على سلوكه العام .

أما في المدرسة الابتدائية فكان اسمه Litterator ، وغالباً كان عبداً أو أعتق من الرق ، ولم ينظر إليه باحترام ، وأجره ضئيل ، لم يزد عن ربع مرتب المدرس في المدرسة الثانوية ، وعن خمس مرتب المدرس في المدرسة العالية . وكان يطلب منه إلى جانب التدريس القيام بالعقوبات البدنية التعذيبية على الأطفال .

وسمى مدرس المدرسة الثانوية Grammaticus ، واشترطت فيه القدرة

اللغوية وكان له احترام في المجتمع ، زاد على مر القرون .
أما مدرس المدرسة العالية فسمى rhetor ، وكانت له المكانة السامية في
المجتمع بين كل أنواع المدرسين .

وعرف المدرسون المرتبات الدورية الرسمية منذ القرن الأول الميلادي .
ولو أن الرومان كانوا يحتقرون فكرة إعطاء مرتبات للمهنيين عموماً . ولعل
نظرة سريعة على مرتبات المدرسين على اختلاف مستوياتهم تظهر أنها كانت
قليلة ، ويقدر البعض أن ما يصرفه الأب على تعليم ابنه أقل مما ينفقه على
استحمامه اليومي .

أما عن التلاميذ والطلبة فليست هناك معلومات أكيدة عن مستواهم الثقافي
وإن كان الاعتقاد الغالب أن تعلم 3Rs وهي القراءة والكتابة والحساب كانت
من المستلزمات في عصر الانتقال ، ويقال إن معظم العبيد والمعتقين من العبودية
الذين خدموا في بيوت النبلاء عرفوا القراءة والكتابة والحساب لأن سادتهم
وجدوا ضرورة نفعية لذلك ويقال أيضاً إن المعتقين كانوا يجاورون الأحرار في
دراساتهم بالمدرسة الابتدائية . وفي تحليل للظروف الاجتماعية الرومانية نلمح
محددًا للقدر الذي يتعلمه الشاب . فالمعروف أن المدارس في ذلك العصر
لم تنشأ الدولة ، بل كانت خاصة يدفع الطلبة أجراً عن حضورهم . والمعروف
أيضاً أن مناصب الدولة الراقية كانت وفقاً على الأرستقراطيين ، وأن هذه
الوظائف تطلبت دراسة عليا ، وبذلك نجد أن العامل الاقتصادي (المصاريف)
والعامل الطبقي حتماً على أبناء الشعب الوقوف عند حد التعليم الابتدائي
والثانوي .

وتطلبت شئون الإمبراطورية عدداً هائلاً من الكتاب . وكان هؤلاء من
الطبقة الشعبية ، تاركين المناصب القيادية للنبلاء ، وعندما آذنت الإمبراطورية
بالأقول ظل النبلاء محتكرين الدراسات العليا ، بل إنهم اعتبروا التعليم حقهم
الذي لا يجب أن يتازعهم فيه أحد ، وارتبط نوع التعليم بالنظام الطبقي
الروماني . أما عن تعليم البنات ، فالشواهد تؤكد أنه سمح للبنات ، في نطاق

سبق جداً ، أن تدخل المدرسة الابتدائية ، ولكنها قبل ظهور هذه المدرسة قُبعت في عقر الدار تتعلم عن طريق المشاركة أصول التدبير المنزلى وتربية الأطفال ، وعهد إليها ، بعد الزواج ، بكل ما يتعلق بالبيت والإشراف على الخدم وتعليم أطفالها القراءة والكتابة . ثم يذهب البنون في سن السابعة إلى المدرسة ، وتستمر الأم ترعى نمو ابنتها الخلقى والأدبي . على أن بنات الأرستوقراطيين كانت لهن ميزة للتقدم في الآداب والفنون تحت إشراف مربين يعلمونهن في منازلهن . ويذكر المؤرخون أنه بعد القرن الرابع الميلادى فتحت أبواب المدارس الابتدائية والثانوية أمام البنات من الطبقة الأرستوقراطية

وثمة ظاهرة واضحة في عصر الانتقال وهى إهمال التربية الرياضية في المدارس . بل إن كوينتليان قال إن الرقص لا يجب أن يدرس للأطفال ، ولا يجب أن يختلط مدرسو التربية البدنية بالتلاميذ ، وإن الرياضة البدنية تقتصر فائدتها على إعطاء حركات الخطيب الرشاقة المطلوبة . ومع إعجابه بجمال الأجسام فإنه لم يتطلب في المتكلم المفوه جمالا جسمى ، ومع ذلك فقد ألحق الرومانيون بالجماعات العامة والخاصة جمنازيا وبالايستريا على النمط الإغريقى ، ولكن لم يكن للجمنازيوم أو البالايسيريا أثر تربوى ، ولم تعرفها المدارس . وكانت هناك مدارس خاصة لتدريب المصارعين ، وكان النبلاء يصرفون على هذه المدارس ، وأنفقت عليها الدولة أحيانا من ميزانياتها عندما زاد شغف الرومان بحضور حلبات المصارعة وروية الدم ، والاستمتاع بإنسان يقتل إنساناً أو حيواناً مفترساً في صراع رهيب ... وقد شجع نيرون الشباب على الدخول في مسابقات في حلبات المصارعة ، وفي الألعاب اليونانية التى أدخلها ضمن المسابقات في روما ، ولكن قضى على المسابقات بانتهاء عصره . وهكذا نجد أن اهتمام روما بالتدريب العقلى ونبذها للتربية الجسمية الرياضية الإغريقية قد أوقف انتشارها في أوروبا ، حتى إذا جاءت المسيحية ألغت المتبقى من هذه التربية لعدة قرون .

مرحلتا المعاهد والانحلال

تتميز مرحلة المعاهد كما يظهر من التسمية بأن أشكال المدارس أصبحت ثابتة وطيدة الأركان ، فقد هيأت لها مرحلة الانتقال ثقاليده ترسخت . وقد بقى للبيت أثره فى التربية ولكن اقتصر عمله على الناحية الأخلاقية فحسب ، وتكفلت المدارس بالآداب ، وزاد عددها زيادة كبيرة ، ومع هذه الزيادة غاب عليها الطابع الكتبى والسطحى والشكلى . وقد ظل للمدرسة فى مهمتها نفس الطابع فى عصور الأباطرة الأوائل ، وظل ارتباطها بحاجات المجتمع . وكان الناس يهرعون إلى حيث يوجد خطيب يتكلم ، ويقفون ساعات يستمعون ، ويندفعون إلى الاستماع إلى الخطيب المفوه كما يندفع الناس اليوم للاستماع إلى مطرب شهير أو فنان كبير أو مباراة حساسة فى كرة القدم . وبعد أن ينتهى من خطابه يتفرق المستمعون وهم يتحدثون فيما تكلم عنه .

ومع الاتساع الإمبراطورى نمت الروح الوطنية ونما الأدب اللاتينى مناهضاً للأدب الإغريقى .. ولكن مع ازدياد الثروة والاهتمام بالنواحي الشكلية والمظهرية تحولت الموضوعات التى يكتب فيها الطلبة إلى أمور لا ترتبط بالمجتمع وظروفه وحاجاته .. حتى التربية الخلقية بدأ الإهمال يتسرب إليها ، حتى إلى أن كان ختام المرحلة المعهدية حيث أصبحت المدارس فى ناحية والحياة الفعلية فى ناحية أخرى ، كل فى واد .

ويتميز عصر الانحلال بغلبة النواحي الشكلية ، فقد أصبح البيان والبلاغة أهدافاً لا وسائل لتحقيق أهداف سامية أو عملية ، فقد تحول الأباطرة إلى حكام متسلطين ، ولم تعد هناك هذه الجموع التى تتدافع لتستمع إلى خطيب يقنعها بقوله ، فقد تولى السيف إقناع الجماهير ورسم الطريق الذى يجبرون على السير فيه . وتحول منطق الخطباء فى التأثير على الجموع إلى أوامر إمبراطورية لا يستطيع فرد أن يناقشها ، وتحولت صيحات الإعجاب من المستمعين إلى صرخات واحتجاجات حبيسة فى الصدور . وكانت المسامير بدق فى نعش التربية الرومانية ، ففقد الكل حماسهم بعد أن فقدوا البواعث

للتعلم بتحويل الساحة إلى أيدي الأباطرة ، وكم من هذه الأيدي وقعت أوامر الاضطهاد والقتل . وما عاد للعلم رونق أو بهاء لأنه فقد المقبلين عليه اللهم إلا جماعات من النبلاء ، ومنهم كثير من السيدات ، هؤلاء الذين قطعوا الملل والفراغ بدراسة الآداب والفنون كأشياء مكملة للغنى والثراء ، مجرد حلية للمباهاة .

وحتى في المدارس طغى المظهر على المضمون ، فكان التلميذ يرص الكلمات المنمقة وبتخير الغريب الشاذ منها على حساب المعنى . واهتم المدرسون بتحفيظ القواعد اللغوية والإمعان في التعقيد فيها حباً في التعقيد ، وحتى يكون الطالب قادراً على إدراك تعقيدات اللغة ، أكثر من معرفة نفيده وتنفع مجتمعه . وخرجت التربية الخلقية من البيت إلى عهدة المدرسة . وكان المدرسون أنفسهم منحلين فاسدين ، علموا تلاميذهم الأخلاق .. ولم يمارس التلاميذ الخلق الكريم ، كما كان الحال سابقاً في البيت ، بل اقتصر تعلم الأخلاق على حفظ حكم ومواعظ وكتابة موضوعات لإنشائية عن الأخلاق . وكان هذا أمر طبعياً ، فلم يكن هناك مثل خلقى يحتذى به ، وجاءت المسيحية ناثرة على هذه التربية الوثنية .

ويلوح أن المدارس الابتدائية اختلفت في هذه المرحلة في تاريخ التربية الرومانية ، ومن المحتمل أن يرجع سبب ذلك إلى أن الطبقة الشعبية التي كانت تلج هذه المدارس أصبحت في حالة من البؤس والاستغلال والذل لا تسمح معها فرص للتعليم ، وبقيت المدارس الثانوية التي تستمر الدراسة فيها إلى سن الرابعة عشرة ، ثم يدخل الطالب المدرسة العالية إلى حوالي سن العشرين .

وفي عهد القياصرة سيطرت الدولة سيطرة كاملة على التربية ، فلم تعد هناك مدارس لا تديرها الدولة ، بل وتصرف عليها وتدفع مرتبات المدرسين . وإن المدرسين وأبناءهم وزوجاتهم قد نالوا امتيازات كثيرة مالية وأدبية كما أعفوا من بعض الالتزامات الضريبية والخدمة العسكرية . ومنح القياصرة بعض الطلبة منحاً للدراسة . ويذكر المؤرخون في وصفهم القياصرة أنهم كانوا (١١ م - تطور الفكر)

رعاة للثقافة : وتغللت سيطرة الأداة الحاكمة على الشؤون التربوية وخاصة تعيينات المدرسين ، فقد أمر جوليان عام ٣٦٢ بمنع تعيين المدرسين المسيحيين في المدارس ، وبلغ التحكم مداه عندما أصدر الإمبراطور جستنيان المسيحي عام ٥٢٩ أمراً بإغلاق جامعة آثينا الوثنية ، وبدأت السيطرة الدينية تتحكم في التربية .



غزت روما بجيوشها أراض الأغريق ، وغزت الثقافة الأغريقية روما وإمبراطوريتها . ويطلق المهتمون بتاريخ التربية تعبير « التربية الهيلينية » على سيادة الثقافة الإغريقية في فترة سادت فيها ربوع الشرق الأوسط وامتدت شرقاً إلى الهند وغرباً مغطية الامبراطورية الرومانية . وقد بدأت هذه الفترة قبل غزو الرومان بلاد الإغريق وانتهت عام ٥٢٩ ميلادية وعندما أغلق الإمبراطور جستنيان أكاديميات آثينا ووضع التربية المسيحية تحت الإشراف المباشر للكنيسة . في خلال هذه الفترة الطويلة صار للثقافة الإغريقية صدى عالمياً ، بل إنها ازدهرت بما قدمته الفلسفات من الإسكندرية وسوريا وفارس والهند .

ومن الجدير بالذكر أن ثمة تغيرات صبغت التربية الإغريقية بصيغة حررتها من الأفكار الإمبرطية ، ففي آثينا مثلاً ألغى نظام التدريب القبيح حوالي عام ٣٠٠ ق.م. ، وازدهرت أكاديميات الفلسفة ولعل أشهرها أكاديمية أفلاطون ولبسيه أرسطو : كما تلالأت مدارس الرواقيين والايقوريين— للدراسات العالية . وقد عرف عن هذه المدارس الرواقية والايقورية تأكيدها سيادة العقل في أمور الحياة إلى جانب استخدام قوى العقل وإمكانات المعرفة لتحقيق أغراض شتى : فقد اهتم الرواقيون بالبحث عن فضائل ضبط النفس والامتياز الخلقي ، أما الأبيقوريون فجروا وراء المتعة والسيادة الفردية وتمركزت هذه المدارس وغيرها في آثينا التي أصبحت منار العلم :

وقد شمع النور العلمى والفلسفى فأضاء مدناً كثيرة وما فيها من مراكز
علم ، منها الاسكندرية ونيسابور وانطاكية وطرسوس ورودس ... وغيرها
سما يحق معه القول إن المشرق الأوسط تفجر بالأعمال الثقافية والبحث العلمى
والتفكير الفلسفى . ولم يعد التفكير الخلاق المشرق قاصر بين "على مركز واحد ،
ولم يعد هذا أو ذاك احتكاراً لشعب معين أو مدينة معينة ، بل صار تزاور
وانتقال للدراسة بين مراكز المعرفة . بل إن كنوزاً من الكتب التى خلقتها
عقول سابقة تركت أوطانها لتستقر فى مدن أخرى . ولم يمنع هذا من امتياز
جامعة أو مدرسة فى فرع أو أكثر من فروع المعرفة . كما أن حركة الترجمة
سارت بخطى أكيدة ، فقد ترجم من الهندية إلى اللغة البهلوية (الفارسية
الوسطى) وإلى اللغة الأرامية التاج الهندى فى الرياضيات والطب والفلسفة
والتقصص والأساطير . وكانت فارس بهذا حلقة الوصل بين ثقافة الهند
والإنتاج الإسلامى ثم عن طريقه إلى العالم الغربى .



وقد يمكن القول إن الثقافة الغربية نبتت من مصادر منها (١) :

أولاً : مدرسة الإسكندرية :

عندما غزا الرومان مصر فى آخر القرن الأول قبل الميلاد أخذوا إلى روما
ذكورة هذه المدرسة ... مدرسة تدرس الكلمة المكتوبة ، قادرة على أن تعلم
المثقفين من الرومان حكمة الإغريق المدونة ... ثم أضاف الرومان إلى هذه
الفكرة فكرة إنشاء مدارس للصغار ، ثم انتشرت سريعاً فى أنحاء الامبراطورية
الرومانية فكرة الاسكندرية الجديدة ، حتى إذا انتشرت تعاليم المسيحية النبيلة
وبثت العقيدة بجودية واضحة اتخذت من هذه المدارس مراكز تسطع وتشمع
منها العقيدة دون تحريف أو تغيير .

وظلت طريقة مدرسة الإسكندرية التعليم سائدة خلال العصور الوسطى

سواء في تعليم الموضوعات الدينية أو غيرها من شتى صنوف المعرفة . وأصبحت التربية بمعناها المدرسي تعني تعلم محتوى الكتب . واستتبع هذا - حتمياً - الاهتمام البالغ بالاستظهار وحفظ ما تحويه الكتب سواء الدينية أو غيرها . وإذا كانت 'الفكرة الإسكندرية قد أفصحت عن ذاتها وانتشرت منذ حوالى ألفى عام ، فهي ما زالت إلى اليوم تكاد تكون - عند البعض - هي الطريقة التربوية الوحيدة والسليمة...' حفظ ما في الكتب ودون مناقشة ما يحفظ على ظهر قلب .

تختلف وجهة نظر مدرسة الإسكندرية عن وجهة نظر أخرى ترى المتعلم ليس مجرد عقل يحفظ ، 'وتنظر إلى الفرد على أنه كل متكامل ، وأن الجانب العقلي فيه لا يمثل إلا جانباً واحداً من (شخصيته) ، وأن التربية ليست مجرد حشو الأذهان بالمعلومات ، وإنما تتناول شتى جوانب نمو الفرد . وإن بين وجهتي النظر الإسكندرية القديمة' ، والنظرة (الحديثة) حواراً طويلاً ، كانت للإسكندرية الغلبة فيه على مر العصور . ولم تستطع التربية الحديثة أن تحرز نصراً حاسماً ، بل إن جماعة من المربين والنفسانيين اليوم يؤكدون وجهة النظر التي انبثقت من الاسكندرية ، والتي ترى أن على المتعلم أن يطيع مدرسه وأن يجلس منصتاً على مقعده المثبت على الأرض ، وأن يستذكر دروسه ويعيها بجدية وهمة . ولا يطلب المدرس من تلاميذه أكثر من الحفظ التام لما يكلفون به . الطاعة والحفظ ... وكفى .

على أن سيادة الفكرة الاسكندرية لم تمر على قرون التاريخ دون وخزات ومحاولات وصيحات ثائرة ... وهذا ما سوف يتعرض له هذا الكتاب في رحلته مع الزمن . وقد يكون من الطريف أن نستهل بعض السطور الآن في محاولة لاذعة ناقدة للمدرسة الإسكندرية ، محاولة ، القصد الأول منها أن ندعم القارئ إلى شئ من التأمل والتفكير :

- الكتاب كما يستخدم مركزاً للعملية التربوية خادم طيب ولكنه سيد

ردى .

- لم توجد مؤسسة قادرة على بث الكراهية نحو القراءة أكثر من المدرسة
- حذار من أن تشجع المعرفة كوسيلة للحصول على مزيد من المعرفة بدلاً من أن تكون وسيلة للعمل والإنجاز .
- عمل بدون معرفة هو ابن شرعى لفكر منفصل عن العمل .
- قد تخلق الكذب من شخص إنساناً مثقفاً ، ولكنها لن تكونه رجلاً .
- نحن ننزع الطفل من الأرض التى يعيش عليها لنعلمه الجغرافية ، ونسرق لغته لكي نعلمه النحو والصرف .

- وصف أحدهم نظام التدريس فى كلية ما على يد أستاذ ما يستخدم مذكراته يملأها على طلبته ، قال الساخر : يستخدم هذا الأستاذ أسلوباً تنتقل به الكلمات بطريقة غامضة من الكراسة التى تحوى مذكرة أنه إلى كراسات الطلاب دون أن يكون لعقله أو عقول طلبته أى دخل فى الموضوع .
- ويروى عن برنارد شو أن جماعة من المربين الإنجليز طلبوا موافقته بالسماح لهم بتضمين فصل من إحدى مسرحياته فى كتاب يدرسه طلبة المدارس الثانوية . وكان رفض الكاتب الساخر اللاذع حاسماً . إذ قال : لا ، لأننى ألحن إلى الأبد من يجعل من عمل من أعمالى كتاباً مدرسياً ، ألعنه لأن المتعلمين سيكرهوننى كما يكرهون شيكسبير .: لأننى لم أكتب مسرحياتى لتكون أدوات تعذيب .

ثانياً : التأثير السورى - النسطورى

فى رأى الكثير من مؤرخى التربية والثقافة أن التراث الإغريقى وصل إلى المسلمين على أيدي النسطوريين واليعاقبة ، وعلى أيدي أساتذة أكاديمية جندنيسابور (من أعمال ولاية خوزستان بجنوب فارس) . ويقال إن النسطوريين (أو النساطرة) واليعاقبة أهتموا بالعلم والفلسفة الهيلينية مدعمين بمنطق أرسطو الذى لم يتعارض مع التعاليم المسيحية لهاتين الطائفتين . وكان لهما فضل فى الاحتفاظ بالتراث الإغريقى لا يفوقه إلا التسامح والتشجيع الذى لاقاه العلماء المسيحيون على أيدي المسلمين ومن قبلهم بعض أكامرة الفرس ،

وفي عام ٣٦٣ ميلادية شهد العالم نهاية الصراع الحربى الذى طال دون نتيجة حاصمة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . وقد أعطيت مدينة نصيبين البيزنطية للفرس كواحد من شروط السلام . وكان فى نصيبين مدرسة هى درة المدينة وفخرها . ولكنها نقلت منها إلى حيث تصبح كما كانت ضمن حدود الإمبراطورية البيزنطية . ولم تعجب مدرسة نصيبين المنقولة بفلاسفاتها بعض أباطرة بيزنطة حتى إن أحدهم وهو زينو أغلقها عام ٤٣٩ ميلادية لتعريضها جماعة النسطوريين . وأجبر أعضاؤها - وكان مركزهم فى Edessa وهى الرها - برئاسة برسومة إلى الهجرة لبلاد الفرس . وفى فارس أعيد فتح مدرسة نصيبين تحت سيطرة النساطرة ، ومنها عملوا على نشر المسيحية من وجهة نظرهم (ومن رأيهم تأكيد بشرية السيد المسيح) ، ونشر الثقافة الهيلينية . وقد قاموا بترجمة أعمال أرسطو إلى اللغة السريانية ، وهى التى ترجمت بعد ذلك إلى العربية :

ويؤخذ على طائفة النسطوريين أنهم لم يطوروا الثقافة الهيلينية ، بل احتفظوا بها كما هى ، فهم ترجموا ونقوا ، وإن كان هذا لا يقلل من أهمية الدور الذى لعبوه ، فقد أوصاوا هذه الثقافة إلى المسلمين فيما بعد . ويقول أولبرى فى هذا الموضوع :

« إذا اعتبرنا الاختبار الرئيسى للكفاية التربوية هو مدى ما تحققه من حصيلة البحث وليس مجرد الحفاظ على المادة الموجودة فعلا ، فاننا لا يمكن اعتبار النسطورية اجحة تربوياً ، هذا هو محك الاختبار ، فالمعرفة من خصائصها التقدم ، وعلى ذلك فان أى إسهام ولو طفيف نحو مزيد من التقدم له قيمة فعالية أكثر من تعاليم النتائج التى حققت فى الماضى (١) ... »

ثالثاً : أكاديمية جنديسابور

أصبحت أكاديمية جنديسابور فى جنوب فارس مركزاً ثقافياً ذائع الصيت

بل إنها كانت ماجاً هرع إليه العلماء فراراً من اضطهادات الحكام ... ويقال إن الحرية الفكرية التي تمتع بها العلماء يسرت أمر الزواج بين العديد من الثقافات منها الإغريقية والصينية والهندية ، كما ضمت الأكاديمية أساتذة وعلماء من اليهود والمسيحيين ، وفي رأى أوليري أن هذه الأكاديمية فاقت مدرسة نصيبين والرها ، بل كانت أعظم مركز للتعليم العالي (١) .

ويظهر أن دور أكاديمية جندنيسابور فاق دور النسطوريين ، مع أن علماء الأكاديمية استغرقوا في ترجمات عديدة من الصينية والهندية والإغريقية إلى اللغة البهاوية واللغة السريانية ، إلا أن ثمة محاولات بذلت لتحسين هذا التراث ، غير أنها لم تتم ، طاقاً إلى المستوى الذي وصل إليه العلماء المسلمون فيما بعد ، ويذكر أن كسرى أنو شروان استقبل - بالحفاوة البالغة - اللاجئين من العلماء ومنهم الساطرة الفارين من الرها عام ٤٣٩ ميلادية والذين خدمتهم الأكاديمية الفارسية كمركز دولي للمعرفة . ويذكر أيضاً أن أنو شروان الكسرى الفارسي شجع الساطرة على استخدام التراث الإغريقي المترجم إلى اللغة والسريانية ثم أمر بترجمة هذا التراث إلى اللغة الفارسية ، خاصة أعمال أفلاطون أرسطو التي تمت تحت إشرافه الشخصي .

هكذا أصبحت جندنيسابور مركزاً للدراسات الفلسفية والرياضية والفلكية والطبية . وعندما جاء الإسلام إلى فارس في القرن السابع الميلادي زاد ازدهار الأكاديمية وتمتعت بمزيد من التشجيع المعنوي والمادي ، وكانت لها آثار كبيرة على الثقافة الإسلامية . وظلت الأكاديمية تشع إلى القرن الحادي عشر ، وقد أسهمت هذه الأكاديمية في حركة الترجمة التي شجعها الخلفاء العباسيون ، فقد بدأ ثاني خلفاء الدولة العباسية وهو الخليفة المنصور نهضة الترجمة التي استمرت إلى عهود تالية .

ويذكر أن العالم الطبيب بختيشوع كان أستاذاً وعميداً في المستشفى الملحقة

مجندينيسابور ، وقد استدعاه الخليفة العباسى الهادى إلى بلاطه ، كما أنه وفد إلى بلاط هارون الرشيد . ويقال إن عائلة بنخيشوع الطبيب حملت لواء امتيازه الطبى العلمى لسبعة أجيال ، وإن الفضل رجع لأحفاده فى نقل المعرفة الطبية الإغريقية - الهندية - الفارسية للأطباء المسلمين ومنهم على سبيل المثال الرازى وابن سينا .